خاطرة نثرية مجلة مفتوحة

ذاكرة وزبد
بين ضرورة التغيير والبحث عن التفرّد .... تناقضَ المكان وذاكرته

د. ميرنا ريمون نصرة
(كلية الهندسة المعمارية ، جامعة المنارة
البريد الالكتروني: mirna.nassrah@gmail.com)

I. مدينتي والبحر...ذاكرة محرّمة..

في مدينتي ملامح من خلودٍ غيبيٍ متناقل ...
نثراتٌ مبعثرةٌ من حكايا وصور، وبقايا مشاهدات دافئة في ثنايا الذاكرة...
محطات....
حذوها حذو باقي المدن المُستهْلِكة، المتلقفة لأفكار
المركز (الغرب) ترتسم فيها الصورة المعمارية والعمرانية الرمزية،
بتجربة المدينة الحيّة، ممثلة بكورنيشها الغربي..[1]
تتجاور فيه شواهد بإيحاءات ورموز، غيبية وجدانية أفرزتها الذاكرة والتراكمية الاجتماعية، ومادية بصرية فرضها البنيان ببعده الرابع...

الكورنيش الغربي قديماً.... مسار مفتوح متعدد القيم المعمارية

II. في وشوشة الأمكنة ....

للمرئي في مدينتي الآن سحرٌ..
كما السحرُ كان لمريءٍ قد مضى فيها ...
تتعدى قيمة المكان فيها حدودَ المادة والبصر، تتجاوزها لتغدو سمة وملامح أصحابها وتاريخَها بالكامل..
فيمسي ذاك المفهوم – مفهوم المكان وحدوده – حيّزٌ افتراضي سرمدي، حدود لا مرئية، راسخةً محملةً بقيمٍ يتم تداولها وباستحضارٍ موجع لذاكرة أهل المدينة الجمعية ...

مسار اجتماعي رئيس – بقايا مشاهدات دافئة في ثنايا الذاكرة...

[1] ا المنطقة التي كانت مقصد سكان المدينة ومتنفسهم ومكان لقائهم وموعدهم اليومي مع العرض الأزلي الساحر لمغيب الشمس ومركز نشاطاتهم، والموقع الذي استقبل أبرز زوار مدينتهم من أم كلثوم إلى جمال عبد الناصر. انه المكان الذي يحدث فيه كل شيء تقريبا.

متحف معماري وعمراني مفتوح، بتعبير آخر، مسار شعبي رئيس، متعدد القيم والبنيان، ذو دلالاتٍ حضارية.

أُنسي ...

يُجسد أضداداً زمنية متناسقة، يجمع بين الثقافات المعمارية المختلفة المرتبطة بزمانها وبمبررات تكوينها ووجودها.

سماتها الجمالية بادية في أناقة الأسلوب والتكوين،

في التناسق وبلاغة المعنى...

في التباين الجمالي المنطقي حجماً ولوناً ومقياساً، آخذةً بعين الاعتبار النسب الجمالية ومعايير الاتزان والطابع.

في وحدة الايقاع الافقي الهادئ الرصين...

عمارة حيوية بامتياز متعددة المعاني

محلية الجذور، بدءاً من حوض ميناءها الكنعاني، وجامعه الاثري أو الجامع المعلّق المتفرد بتكوينه المعماري[2] ، وجامع البطرني[3]...

ويستمر ....

ذاك السحر المتخيّل لمحطّات مضت

لحظات تجسد قراءة صادقة لتاريخنا (المكاني) السياسي الاقتصادي الاجتماعي والثقافي آنذاك، مؤشر لحقب لا يمكن تجاهلها في المدينة، تحرّضنا، تدفعنا إلى التماهي مع ذاك– المتخيّل– حتى السكر ...

جامع المرفأ المعلق

" .. ورأيتها بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية، متناسبة المعاني، متناسقة المغاني، قريبة المجاني، رحيبة المواني، في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، أمكنتها مخدّمة، وأروقتها مرخّمة، وعقودها محكمة، ومعالمها معلمة، ودعائمها منظّمة، ومساكنها مهندسة ومهندمة، وأماكنها ممكنة، ومحاسنها مبينة، ومراتبها معيّنة، وسقوفها عالية، وقطوفها دانية، وأسواقها فضية، وآفاقها مضية، ومطالعها مشرقة، ومرابعها موفقة، وأرجاؤها فسيحة وأهواؤها صحيحة.. "

" ابو الفرج الاصفهاني"

خان الخان– تراكم في الطرز المعمارية– المتحف حالياً

[2] لهذا المسجد ميزة توثقه عالمياً على أنه المسجد من المساجد النادرة الذي تقع بوابته في أسفل مئذنته كما ذكرت بعض المصادر.

[3] هو أبو علي البطرني أمير البحرية الإسلامية كما ذُكر على اللوحة الموجودة على باب غرفة قبره.

لُقب بأبي عبد الرحمن وأبي بكر في قصيده للمحمودي كما لُقب بأبي بكر أيضا عند عبد الغني النابلسي في كتابه «الحقيقه والمجاز في رحلة بلاد الشام والحجاز «وقد ذكرته مراجع أخرى على أنه كان شيخا من اكم طرزأولياء الله الصالحين مؤكدين لقبه بأبي بكر وفي سيرة الملك الظاهر وقيل عنه بأنه كان قائدا من قواد أسطول الظاهر بيبرس وهذا معناه أنه فعلا كان رجل بحر كما ذكر على لوحة بابه بغض النظر عن لقبه المختلف عليه كما قيل بأنه حرر اللاذقية فكرمه الملك الظاهر بتعينه نائبا» لوالي فيها فأحبها وأوصى بدفنه بها

التماهي حنيناً....

الى الكورنيش بأيقوناته ...

"الكازينو" ... مبنى بهوية تاريخية جاذبة. تلك الاقواس والزخارف بطرزها المحلية الهجينة تمتزج فيها ملامح من طرز معمارية كثيرة يجمعها المشهد والموج "رشو " " فينيسيا " اللاكابان" والمشتاوي"، تلك المقاهي الصيفية المنخفضة، حدودها البحر، غير المغتصبة لجمال وقدسية المشهد من علو..... [4]

مقهى" العصافيري" ... هبة المدينة الى قاطنيها [5]، مسبح السان جورج، وفارس، وغيرهم وغيرهم ....

الغضب سخطاً...

حين الرجوع بالذاكرة الى المنتج الكولونيالي المتراكم فرنسي وعثماني في" خان الدخان" متحف المدينة حالياً– ذاك الصامت بقبواته وأقواسه وحديقته،

الشاهد على تاريخنا السياسي..

مقر المندوب السامي في توليفة معمارية متعددة الطرز والايحاءات الزمنية والسياسية..

والسكر طرباً...

وصدى ام كلثوم و"رق حبيبها " وتأريخ حضورها، القصبجي، وعبد الوهاب .... أحداث منعشة للذاكرة، بالعود والقصب في تلك الايقونة الشعبية المستدامة مقهى شناتا في ثلاثينيات القرن الماضي...

حلماً ...

حين التماهي وتلك الامواج المتغلغلة الى حرمة الدور حاضنةً الموج حين يغضب..

تلك القصور ارستقراطية الملامح –كما أرادها مالكوها– فأبدع مصمموهم الايطاليون في تأليفهم المعماري الجديد – مكمّلة للمشهد – ببيوتٍ كولونيالية المظهر، محلية الجذور بأقواسها

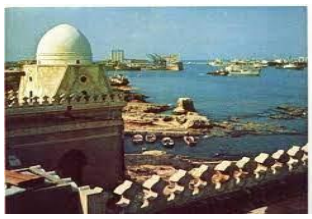

الكازينو قديماً ... المحيط العمراني

"وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الأبنية
وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه "
ابن الأثير

"هي بلد مليح خفيف على القلب غير مستور
وله ميناء مشهور، وله قلعتان متصلتان
على تل يشرف على البلد.. "
ابن شداد

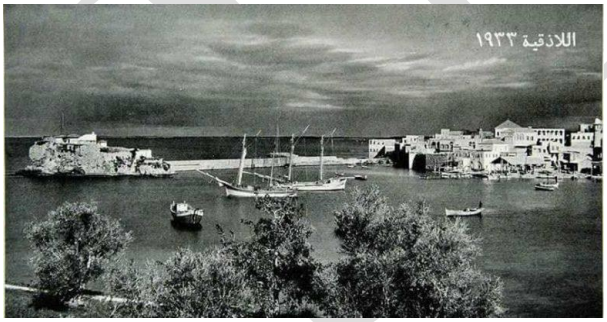

الدور السكنية تتداخل والكورنيش – تم الهدم

[4] هدمت المقاهي الممتدة على الجهة البحرية من الكورنيش كما يسميه سكان المدينة أي الممشى البحري، كما ردم ميناء الصيد الصغير، واختفت الصخور والخلجان.

[5] من معالم الكورنيش الشهيرة، وهو وإن كان لا يزال موجودا، فقد أصبح راسيا على الرصيف، لا يطل سوى على حاويات المرفأ، بعد أن كانت شرفته الممتدة فوق البحر

الثلاثية وزخرفها المشغول، بتفاصيلها، البسيطة منها والمعقدة.

ويهدأ المتخَيل متأملاً أناقة لوكوربوزييه المعمارية متممة المسار.. تتجاور فيه الاضداد في الطرز والدلالات– وان كانت بدلالاتٍ وافدة– لكنها تتجاور بسلام وسكينة ورُقي...
ذاك المسار حيث تلتقي المدينة، فتعيش الفتها ...

III. في الثبات، في التحوّل، ومن ثم الاندثار..

مرة أخرى...
في مدينتي للمرئي الان سحرْ.... كما السحرُ كان لمريءٍ قد مضى فيها ...
بين الحاجة الى التحوّل والتغيير، والتوجس من الاندثار تناقضت الذاكرة مع مكانها، وتخبطت المدينة بنيةً وبنياناً...
نهضة مزعومة تنعي مدينة. في أواخر سبعينيات القرن الماضي..[6]
تحتل بحرها وشاطئها وذكرياتها وقدس اقداسها.. تتوسع لتغتصب أفقها بكتل باردة ترسمُ لَحْدَها..
تشرذمت عمارتها وتاهت ما بين طقوس دفنها ومابين إبهار التحضّر الزائف المنتظر..
ان تباكينا ... فهذا حنين ونوستالجيا، والنوستالجيا– كما عرّفوها– آلية دفاعٍ يستخدمها العقل عند شعور الإنسان بأن حياته فقدت قيمتها وأصبحت تتغير للأسوأ، فيقوم باستدعاء ذكريات الماضي الطيبة بدفئها وعواطفها، فتعطيه تلك الذكريات الدفعة التي يحتاجها للتعامل مع التحديات الحالية....
وإن تجمّلنا – بمنطق العصر المعماري– شهدنا ازدهاراً مدينياً– مرتجى– يواكب الحراك الفكري المعاصر لكنه يناقض روح المكان ويناقض انتماءها .....

وهل حنيننا ونوستالجيتنا لذاكرتنا المعمارية هي دفاع ضمني واحساس مرير بألفة مفقودة!!!!

الكورنيش الغربي قديماً– تم الردم

" سقى الله عند اللاذقية شاطئاً
مراحاً لأحلامي ومغنىً وملعبا
وأرضي ذرى الطود الأشم فطالما
تحدّى وسامي كل نجم وأتعبا
دياري وأهلي بارك الله فيهما
وردَّ الرياح الهوج أحنى من الصبا "

" بدوي الجبل"

الكورنيش الغربي حالياً– بعد الردم وتوسيع المرفأ

[6] وجهة نظر

IV. هل غدت ذاكرتنا منثورة محفورة على رمل!!...

فقدَ المكانُ هويته في ظلِ كلّ المتغيرات الطارئة، تشرذمت قيم المكان بتراكم التاريخ فيها..

وما بين الحنين والحاجة الى التغيير تبددت الصور..

كلاهما حاجة ...

الذاكرة وجود.... ومواكبة احتياجات العصر وجودٌ ايضاً

لكن ...

مجالات المدينة المتحولة، قسرياً أو طوعياً...لا تحقق الحلم

السطوح اللامعة لاتحكي قصة البحر ....

تتخايل فيها فقط انعكاسات البحر المفترضة بعيدة المدى، حيث السماء والبحر يتماهيان من بعيد...[7]

رئة المدينة، شريانها الحي المتلمس الوجدان، لصيق البحر، تاريخها الملموس، ونبض ساكنيها...

كل مافيه أصبح متقناً بمنطق عمارة اليوم الاستعراضية

لامعاً،

برّاقاً،

تلك الأبراج، تفاصيلها جميلة

لغتها المعمارية مميزة .....

كلّ مافيها يغوي، يحاكي في غوايته نساءنا،

مزّينٌ، مجَمّلٌ، تلوحُ في كل تفاصيله أطياف الرغبة والإبهار...

شرائح ساكنيها وروادها منتخبةٌ ومنتقاة ...تفرُضها الهرمية الاقتصادية التي أفرزها القرن

مازال ذاك الملقى المزعوم(كورنيشنا) ينبض ...

نبضه...

وتلقائيته...

وحتى عفويته المزعومة مسيّرة موجهة !!!...

وجه البحر...أضحى انعكاساً للطروحات الفكرية السائدة، أسيرةً لقيود التقليد والنقل

مبنى المحافظة– الكورنيش الغربي– خمسينيات القرن العشرين

فندق جمال – يرتبط بذاكرة المدينة وبأحداث سياسية فيها– تم الهدم

" في هذه البقعة من الأرض، يلمس الإنسان عظمة الحضارات الماضية من خلال أوابدها الباقية، ويعيش سحر الطبيعة المزدانة بأجمل الحلل الخضراء والشواطئ البنفسجية التى تلمع تحت سماء عميقة الزرقة... اللاذقية.. هي المدينة التي وصفت فأنصفت بالقول: مدينة عتيقة على ساحل بحر الشام. إنها خلاصة التاريخ المديد. ومختصر تاريخ البشرية على الأرض الضارية بجذورها في أعماق الماضي البعيد.. مدينة العراقة والخلود. السبّاقة "

"**جبرائيل سعادة** " – بتصرف

[7] أصبح البحر الذي كان حرفيا في متناول اليد، قصيا بعيد المنال، بين الناظر وبينه رافعات وحاويات عملاقة، وذلك بسبب توسيع المرفأ الذي ابتلع فعليا ذاكرة المدينة.

لم ننجح في استيلاد[8] عمارة لصيقة لمكانها بعيداً عن التبعية الفكرية، وعن تأثير تبعية المنتج ورأس المال والثروة والسلطة والابهار الموحد المقولب ...

لم يلهمنا المخزون المكاني الثري ولم يُغنينا لتحقي صياغة معمارية اليفة..

لم تنجح المحاولات اليائسة لبعث الحياة في الأمكنة...

ومدينتنا تلهث...

تتزين.... كما أرادوها

تواكب لغة العصر، وانتماء اللامكان..

عصريةٌ هي– ليست كما وصفها الأصفهاني[9] وابن بطوطة وغيرهم– عصريةٌ قابعةٌ في حضن البحر ...عن بعد

تستكين وتتعبد لذاك الإله– البحر– غير الموجود..

تترقب، بل تتوجس وتعود للحلم هامسة: دعوني أهدأ في ثنايا ذاكرتي، أعيش حنيني وسخطي وحلمي...

وصفوها .....

بأسى..

بشوقٍ ...بحسرة

استذكروها في خواطر وقصائد[10]....

الكورنيش الغربي حديثاً

" ثم سافرت إلى مدينة اللاذقية. وهي مدينة عتيقة
على ساحل البحر، يزعمون أنها مدينة الملك الذي
كان يأخذ كل سفينة غصباً. وكنت إنما قصدتها لزيارة
الولي الصالح عبد المحسن الإسكندري.
فلما وصلتها وجدته غائباً بالحجاز الشريف،
فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيداً
الجبائي ويحيى السلاوي، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء،
أحد فضلاء الشام وكبرائها، صاحب الصدقات والمكارم

.....وميناء هذه المدينة عليه سلسلة بين برجين،
لا يدخله أحد ولا يخرج منه حتى تحط له السلسلة،
وهو من أحسن المراسي بالشام "

ابن بطوطة

"وهذه اللاذقية مدينة واسعة وخطة جامعة معاقلها
لا ترام وأعلاقها لا تستام،
وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها وأزيدها
أعمالاً وضياعاً وأزينها وما في البحر
مثل ميناها ولا للمراكب الواردة مثل مرساها وهي جنة... ".

شهاب الدين المقدسي

[8] استيلاد: مصطلح يُطلق على ما ينشأ أو ينمو داخل نسق أو بنية مادية كانت أو عقلية وذلك بحسب المعاجم اللغوية

[9] ت/589هـ) في (الفتح القسي في الفتح القدسي) عندما فتحها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 584/هـ. قال: "ورأيتها بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية متناسبة المعاني، متناسقة المغاني، قريبة المجاني، رحيبة الموانى. في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، أمكنتها مخرمة، وأروقتها مرخمة، وعقودها محكمة، ومعالمها معلمة، ودعائمها منظمة، ومساكنها مهندسة مهندمة، وأماكنها ممكنة، ومحاسنها مبنية، ومراتبها معينة، وسقوفها عالية، وقطوفها دانية، وأسواقها فضية، وآفاقها مضية، ومطالعها مشرقة، ومرابعها مونقة. وأرجاؤها فسيحة وأهواؤها صحيحة...."

[10] مقطع من قصيدة بعنوان "أتذكر اللاذقية" تقول مرام المصري: مرام المصري، وهي ابنة اللاذقية ومقيمة في باريس منذ سنوات "من لم يمش على كورنيش اللاذقية، لا يعرف معنى أن يدق قلبه فرحا للقاء كل أهالي المدينة في وقت واحد من دون سابق موعد، لا يعرف الشوق لتقصي خطوات الحبيب، وكيف تزوغ النظرات، وتُرسل قبلة طائرة خفيّة، ولا كيف يُراقب الغروب وفي القلب أمنية .من أجل نزهة الكورنيش لبسنا أحلى ملابسنا، وتعطرنا، وفي مقهى اللاكبان تعلمنا الرقصات العصرية من الجيرك إلى التشاتشا."

"... أتذكر مساء الكورنيش
الساعة السادسة
وملتقى أقدام وأحلام
صبايا وشبان اللاذقية
أتذكر طرقات وأسماء
أتذكر.....
وأبكي".

دعوني ..... تعود مدينتنا وتصرخ ...
دعوني أهدأ في ثنايا ذاكرتي .... اعيش حنيني وسخطي وحلمي...

وحقيقتنا المُرّة باديةٌ لا تتجمّلْ ....
عصفُ العولمة باقٍ...والقيامةُ تبدو بعيدة
بين ضرورة التغيير والبحث عن التفرد .... تَتَاقَضَ المكان وذاكرته
غدت ذاكرتنا منثورة، محفورة على رمل
انها مدينتنا....
عشقٌ مكتوم...
زبدٌ بلا بحر، قلبٌ بلا نبض ....

الكورنيش الغربي حديثاً– تَوَسُع المرفأ

" هي بلدة ذات صهاريج وهي على ساحل البحر
وبها مينا حسنة مفضلة على غيرها
وبها دير مسكون يعرف بالفاروس حسن البناء.
قال في العزيزي ومدينة اللاذقية جليلة من أعمال حمص....
وهي أجل مدينة بالساحل منعة وعمارة ولها مينا عظيم "

أبو الفداء

واللاذقية محاطة بالبحر من جهاتها الثلاث
وهذه المدينة أشبه بالإسكندرية في بنائها
وليس بها ماء جار يسقى أرضها وهي قليلة الشجر،
قديمة البناء، وبأرضها معدن رخام أبيض أصفر موشى
وبها دير الفاروس من أعجب البناء في الاديرة، وله يوم في السنة تجتمع النصارى إليه
والمينا الذي باللاذقية من أعجب الموانئ في البحر
وأوسعها لا يزال حاملاً للسفن الكبار
وعليه سلسلة من حديد حاصره لمراكبه مانعة مراكب العدو

شمس الدين الأنصاري

قصر سعادة –الكورنيش الغربي– تم الهدم

فندق جمال– تم الهدم

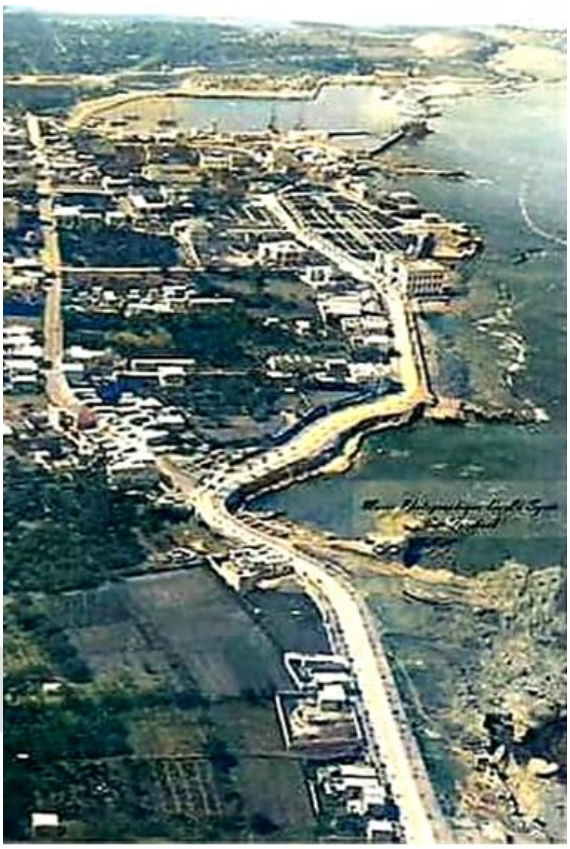

صورة جوية–لكورنيش الغربي

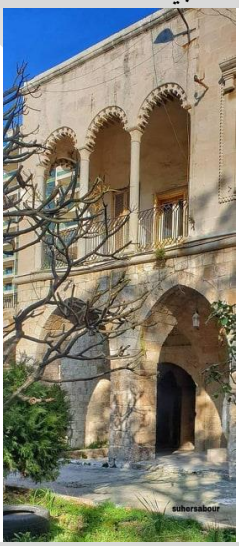

خان الدخان– عثماني فرنسي–المتحف حالياً

الواجهة البحرية للكورنيش الغربي– امام حيّز توسيع المرفأ

الواجهة البحرية "الكازينو" في خمسينيات القرن العشرين

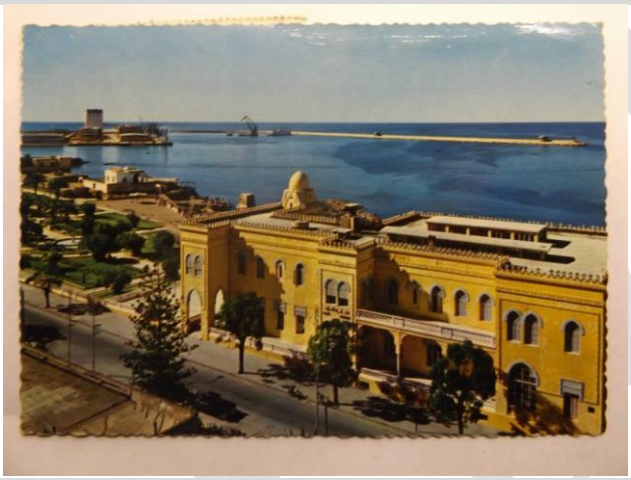

الواجهة البحرية "الكازينو" في خمسينيات القرن العشرين

الواجهة البحرية "الكازينو"– بعد الردم وتوسيع لمرفأ

مبنى نقابة المعلمين– تم الهدم

فتحات من ابنية المحور– تم الهدم

منشورات المؤلف:

[1]. Nassrah, M. (2018). Proportional system in architectural Designing of Qasr al-Hayr al- Gharbi and its portal. *Tartus University Journal.*

[2]. Nassrah, M. (2015). Pluralism in Contemporary Arabic Architecture: The Conflict between Belonging and Movements of Change. *Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Engineering Sciences Series.*

[3]. Nassrah, M. (2014). Manifestations of Modern Regionalism in Developing Countries: Types & Styles. *Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Engineering Sciences Series.*

[4]. Nassrah, M. (2014). Modern membrane coverings and their usage standards in long span structures. *Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Engineering Sciences Series.*

[5]. Nassrah, M. (2007). The intellectual foundations of postmodern architecture, concept and trends of classification and application. *Aleppo University Journal for Research - Engineering Science Series.*

[6]. Nassrah, M. (2007). Intellectual modernity in Western architecture: cycles of transformation and causes of change. *Aleppo University Journal for Research - Engineering Science Series.*

[7]. Nassrah, M. (2007). Contemporary Arab architecture, influences and forms of transformation. *Helwan University Journal of Engineering Research.*

[8]. Nassrah, M. (2003). OF RSIDENTIAL SPACE IN SYRIAN ARCHITECTURE. *Aleppo University Journal for Research - Engineering Science Series.*

[9]. Nassrah, M. (2013). *The mercantile and colonial dimensions as generating forces for the transitional residential architecture in the Syrian coast.* Conference on Syrian Architecture and Development.

[10]. Nassrah, M. (2007). Architectural transformations of thought in the Arab region during the second half of the twentieth century.

[11]. Nassrah, M. (2007). Identity in the Arab and Islamic city - problematic and intellectual logic. *Damascus University.*

[12]. Nassrah, M. (2003). The Ugaritic dwelling, its formal and morphological association with the traditional dwelling in Lattakia. *Tishreen University.*